الحلم والمنعرج الخطأ

ما الذي دفع محاميا تونسيّا شابا متخرّجا لتوّه من جامعة السوربون غداة استقلال البلاد إلى أن يقدم على الانخراط في العمل السياسي تحت قيادة بورقيبة طيلة ما يناهز عشر سنوات بدل ارتداء بدلة المحاماة ؟

يفصح الأستاذ عبد السلام القلّال عن سرّ ذلك في كتاب صادر مؤخرا عن دار الجنوب بعنوان "الحلم والمنعرج الخطأ" يجمع بين السرد والتحليل . وخلافا للمنحى الذي نحاه عدد من أعضاد "المجاهد الأكبر" الذين كتبوا مذكراتهم ، لا يكتفي المؤلف باستعراض مسيرته –على ثرائها وتميّزها– واليا على الكاف ثمّ على القصرين بعد مهمّة في مسقط رأسه صفاقس واضطلاعه بمسؤوليات في إدارة الحزب الاشتراكي الدستوري بل يخصّص جزءا كبيرا من كتابه لتناول الخيار السياسي والاقتصادي الذي اعتمده النظام البورقيبي في ستينات القرن الماضي ليميط اللثام عن جوانب ظلّت معتمة إلى حدّ اليوم ، ونقصد الاشتراكية الدستورية.

يعود الأستاذ عبد السلام القلّال خمسين سنة بعد تطبيق هذا الخيار لتبيان الظروف التي حفّت بفشل تجربة التعاضد. وتكتسي شهادته بالغ الأهمية باعتباره كان مسؤولا جهويا يتمتّع بنفوذ واسع وشاهد عيان على أحداث عاشها أثناء لقاءات جمعته ببورقيبة والباهي الأدغم وأحمد بن صالح حيث يلقي أضواء ساطعة على تلك الفترة المفصلية في تاريخ تونس الحديث، كاشفا عن حقائق تذكر لأوّل مرّة.

ويقول الأستاذ الشاذلي القليبي في تقديم الكتاب : " والأستاذ القلّال في كتابه يشير إلى عديد القضايا الأساسية محلّلا، بنظرات ثاقبة جوانب منها، لم تكن معروفة بهذه الدقّة، وأخصّ منها "قضيّة التعاضد"، وما حفّ بها من أسباب جانبية ، أدّت إلى تعقيدها وآلت بها إلى إعلان فشل التعاضد. والحقيقة يبيّنها سي عبد السلام : لم يفشل التعاضد ولكنّ قرار التعميم هو الذي أفشل هذا الإنجاز الهامّ وأفضى به إلى ما لا تحمد عقباه ".

ولأنّه أبى الانضمام إلى الزمرة التي انقلبت على أحمد بن صالح طلب عبد السلام القلّال إعفاءه من مهامه كوال على القصرين ليستعيد حريته ويمارس من جديد مهنة المحاماة.

في الجزء الأول من الكتاب يروي المؤلف بأسلوب شيق طفولته في برج وسط جنان بصفاقس وأيام شبابه بالمعهد الصادقي ونضاله السياسي في صفوف الحزب الاشتراكي الدستوري ثمّ في صفوف الاتحاد العام لطلبة تونس.

وينقلنا الكاتب إلى أجواء لقاءاته ببورقيبة المفعمة بالحميمة والدفء الإنساني ومحادثاته المطوّلة مع الزعيم فيكشف عن ملامح من شخصية بورقيبة وأوجها من فكره لم تكن معروفة من قبل. وإذ يقف القارئ على قوّة الحجج التي يوردها الكاتب للدفاع عن وجهة نظره بخصوص الاشتراكية الدستورية فإنّه يجد متعة في اكتشاف أحداث ووقائع تاريخية كنشأة الاتحاد العام لطلبة تونس والوضع السياسي السائد في سنوات الاستقلال الأولى وزيارتيْ بورقيبة الرسميتين إلى يوغسلافيا واليونان واللتين رافقه فيهما المؤلف وإقامة "المجاهد الأكبر" في عدّة مناسبات بالكاف، فضلا عن تطرّقه إلى ما ينبغي اتباعه من أسلوب في مصاحبة الرئيس وتبادل الحديث معه وإقناعه بجدوى قرار يتعيّن اتّخاذه.

يبقى القارىء مشدودا إلى الكتاب من بدايته إلى نهايته، فالكاتب يجمع بين البراعة في السرد وعمق التحليل وجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب . وهذه المؤلَف يبرز بجلاء الجانب الأدبي في تكوين الأستاذ عبد السلام القلّال، وهو الحاصل على الإجازة في اللغة والأداب العربية، علاوة على حصوله على إجازة في الحقوق وعلى شهادة في اقتصاد التنمية.

وقد اخترنا أن نورد من الكتاب هذه المقتطفات:

المنعرج الخطأ

لئن كان تعميم التّعاضد خطأ فطريقة إيقافه كانت خطيئة في حقّ الدّولة والشّعب. إنّ ما يؤاخذ عليه النظام ممثّلا في الرئيس بورقيبة والمسؤولين في الدّيوان السياسي والحكومة ليس أخذ قرار إيقاف التعميم، فذلك كان موقفا حتميا وإيجابيا، وإنّما الطريقة التي تمّ اتباعها لإيقاف التجربة الاشتراكيّة الدستوريّة، وإنهاء عشريّة الستّينات بتحوّل مفاجئ وعنيف، لا يفرضه لا الواقع ولا المنطق.

يكمن هذا الخطأ في الطريقة التي اتّبعت لوقف تعميم التعاضد، وهو خطأ رئيس الدولة وكل الطبقة السياسيّة، فالكلّ أراد التفصّي من مسؤوليّة التجاوز الذي أدّى إلى الفشل والحال أنّ الجميع ساهم فيه، سواء بتحمّل المسؤوليات أو بالسكوت المريب والجلوس على الربوة تشبّثا بالكراسي دون وعي بالمصلحة العليا للبلاد. وهكذا وبدون تروّ دخلنا في منعرج الخطأ.

كان الشعب في غالبيّته غير قابل لسياسة التعميم التي كان لها مؤيدون متحمّسون وكان لها معارضون شرسون من أصحاب رؤوس الأموال والفلاّحين وأصحاب المهن الحرّة المعنيين بالإصلاح، وكذلك ممن لا يرى جدوى في التعميم، ويعتبره خطرا على النمط المجتمعي والخروج من الوسطيّة والاعتدال، وكان البعض أيضا غير راض عن الطريقة التي وقع انتهاجها لإيقاف تجربة التعاضد المقامة على هياكل ومؤسسات فيها ما هو ناجح، وفيها ما هو في طريق النجاح، ثمّ هناك قسم هامّ من المواطنين أصبحت له مصالح، وطموحات داخل الهياكل الجديدة، وأصبح مستقبله مرتبطا بها، فكيف نسمح بهدم كلّ ما بنيناه، بما فيه من إيجابيات وسلبيات، سياسيا واقتصاديّا واجتماعيّا، وثقافيّا؟...

رسالة بورقيبة إلى وسيلة.

وكان (بورقيبة) يرغب أحيانا في تعاطي لعبة الورق " الشْكُوبّا " فألعب معه، وهي لعبة سهلة لا تتطلب مجهودا فكريّا كبعض لعب الورق الأخرى. لكنّها تنسيك فيما حولك من مشاغل ومشاكل، لم يكن اللعب معه سهلا، وكان له اهتمام خاصّ " بالحيّة " وهي ما يعبّر عنها بالسبعة الدياري، وهي ورقة لها أهميّة خاصّة في هذه اللعبة لأنها وحدها تمثّل رقما مهمّا في احتساب النتيجة، فلمّا يحصل على " الحيّة " بين يديه، كان ينتعش، ويبتسم، ويشعرك بأنه سوف تكون له الغلبة في آخر المطاف، وهكذا تتواصل النشوة ويتواصل الضحك، والتعاليق المرحة، بأن لا غالب له حتّى في لعب الورق.

وعند الانتهاء من لعبة الورق، أتركه يتوجّه إلى غرفة النوم، وأغادر الإقامة نحو الولاية. وذات ليلة تمدّد في فراشه متكئا، وطلب منّي أن آخذ كرسيّا وأجلس أمامه ليقرأ عليّ بعض مراسلاته الغراميّة التي كان يبعث بها إلى وسيلة من منفاه. وكانت مكتوبة باللغة الفرنسيّة. وإنّي أذكر إحداها، وقد بعثها لها من جزيرة جالطة. كانت الرّسالة في منتهى الرقّة والإبداع، فكان

يصف عشيقته وسيلة من خلال صورتها التي لا تفارقه على المنضدة حذو الفراش، ويُخيّل للسامع أو القارئ كأنّ الصورة تتكلّم، وكأنه رسّام يرسم لوحته بتعبيرات جميلة ومؤثّرة تنمّ عن إحساس فيّاض، وعن شعور الحزن بالوحدة والغربة.

فلمّا انتهى من قراءة ه ذه الرسالة المؤثّرة، قلت له سيّدي الرئيس ما هذا الأسلوب المؤثّر والجذّاب في الكتابة؟ فهو لا يقلّ جمالا عن أسلوب الكتّاب الرومنسيون. فأجابني بالفرنسيّة ما معناه" سوف يُعرف بورقيبة في المستقبل البعيد كرجل فكر وأدب مثلما يعرف كرئيس دولة،" وعلى هذا الكلام ودّعته، وغادرت الإقامة متأثّرا بما سمعت، وتصوّرت عمق أحاسيسه وشجونه لما كان مبعدا وحيدا، حاملا هموم شعبه، وهو لا يدري إلى أين المصير؟ وقد تكرّرت تلك السهرات عديد المرّات بقراءة الشعر أو بعض النصوص الأدبيّة المقتطفة من الكتب التي يقرؤها، وقد لفتّ فيما بعد انتباه الحبيب بورقيبة الابن ليبحث عن هذه الرسائل للاحتفاظ بها من الضياع...

بورقيبة هو يوغرطة الذي انتصر.

ولمّا زار وزير خارجيّة إيطاليا فنفاني بورقيبة في آخر أوت 1967 فـــي الكاف، تجاذب معه الرئيس أطراف الحديث حول التاريخ القديم والحروب التي قام بها السكّان الأصليّون لهذه الأرض من البربر، والبطولات التي عُرف بها بعض القادة وعلى رأسهم يوغرطة، الذي قاوم استعمار روما وانهزم بفعل الغدر والخيانة. فأجابه فنفاني قائلا، " إذن فأنت سيدي الرئيس يوغرطة الذي حارب الاستعمار الفرنسي وانتصر " ومن هنا أصبحت هذه المقولة المتداولة " بورقيبة هو يوغرطة الذي انتصر".

وممّا أذكره أنّه في يوم من الأيّام سلّمني الرئيس كتابا حول التاريخ القديم لأقرأه، لكن مع الأسف لم أجد له الوقت، وبعد مدّة وجيزة وبينما كنّا نتناول معه الغداء مع بعض مسؤولي الجهة، توجّه إليّ بالسؤال:" ما هو انطباعك حول الكتاب الذي سلّمته لك؟"، فاجئني هذا السؤال وقلت في نفسي " بماذا سأجيب؟ سأقول الحقيقة! " لم أقرأه سيّدي الرئيس لأنّني لم أجد فسحة من الوقت لذلك" أجابني بلهجة فيها عتاب:" المطلوب أن تقرأ كلّ ليلة صفحة من كتاب حتّى لو كانت الحرب على الأبواب ". وتوجّه إلى الحاضرين متحدثا عن أهميّة المطالعة بالنسبة إلى المسؤولين، حتّى يكونوا دائما مطّلعين على الماضي والحاضر، ممّا ينير لهم سبل المستقبل.

المعروف عن الرئيس بورقيبة أنّه رجل سياسة، ومناضل قاوم الاستعمار، وهو أيضا رجل الدّولة الذي بنى تونس الحديثة، وكان إلى جانب هذا رجل ثقافة واسعة، اكتسبها بفضل ذاكرته القويّة وحبّه للمطالعة، والسنوات التي قضاها في السجون مكنته من قراءة كتب التاريخ.

إنّ بورقيبة يضع نفسه في خانة عمالقة التاريخ، ويعتقد أنّ الله سبحانه وتعالى حبا هذا البلد بعظماء كان لهم صيت وإشعاع تجاوز حجمه الصغير وحدوده الضيّقة، ودخلوا التاريخ من بابه الكبير كحنّبعل، ويوغرطة، وابن خلدون وهو منهم طبعا...

هاجس الخلافة

فكر الرئيس بورقيبة في ابنه لخلافته وعدل عن ذلك.

مازلت أذكر أنّه في شهر سبتمبر 1967، بينما كان الرئيس مقيما في الكاف التحق بنا محمّد الصيّاح، وقد جاء لمقابلته. وبعد الاختلاء به في مكتبه، طلب منّا الرئيس أن نستمع إلى خطاب الحبيب بورقيبة الابن الذي ألقاه بمناسبة زيارة رسميّة قام بها لإحدى الجهات ليشرف على اجتماع عامّ، فأحضر الرئيس المذياع وجلسنا بقاعة الاستقبال نستمع إلى خطاب الحبيب الابن، فكان خطابا عاديّا، لا يشد الانتباه ولا يرتقي إلى ما كان يأمله الرئيس في مثل هذه المناسبات، وبعد أن ضغط على زر المذياع تنهّـد، وعلّق بشيء من الحسرة والمـرارة قائلا: " النار تخلّف الرماد" بالعربيّة وأضاف بالفرنسيّة:

Pourtant le pays a besoin pour longtemps des trois syllabes : Bour gui ba

أي ما معناه " رغم أنّ البلاد ما زالت في حاجة لمـدّة طويلة للمقاطع الثلاثة بور- قي -بة "، فأجابه السيّد محمد الصياح:" سيدي الرئيس الخطابة لا تمثّل عائقا، وهي من الملكات التي يمكن اكتسابها بالتجربة والوقت"، وعقّبت أنا بقولي:" مسؤولو الحزب وشبابه كلهم أولادك، سيّدي الرئيس، لقد كوّنت منهم رجالا سيكونون في المستوى لاختيار من هو أقدر على مواصلة المسيرة. بعد العمر الطويل"، وقد أشار الرئيس لنفس الموضوع مرّة ثانية في جلسة عموميّة انعقدت بمدينة الكاف، حيث لمّح، بصفة غير مباشرة، لهذه الرغبة.

ما يفهم من تعليـق الرئيـس أنّه كان يأمل أن يجد في ابنه ما يؤهلـه لخلافتـه، لـكن " تجري الرياح بما لا تشتهي السفن"، فهو لم ير فيه الخصال التي تؤهله ليتبوّأ يوما من الأيام

المسؤوليّة الأولى في البلاد. وأَعتقد أنّ الفكرة راودته، لكن لما شعر أنّ ابنه لا يمثّل الرجل المناسب لهذه الخطّة عدل عنها. وهذا الموقف يحسب للرئيس بورقيبة الذي لم يتأثّر بروابط الأبوّة، وآثر مصلحة تونس، وهو الذي كان يطمح إلى أن يكون الرئيس بعده رجل دولة يجمع بين الكفاءة العلميّة والتجربة النضاليّة. لكن مع الأسف، لم يعمل من أجل تحقيق هذا الهدف.